أثر التلوث البصري على المباني التاريخية (مدينة تلمسان بالجزائر: نموذج)

بوجلابة فوزية سعاد[1]

الملخص: يعد التلّوث من الظواهر البيئية الحديثة النشأة، وقد حظيت هذه الظاهرة باهتمام بالغ من قبل العلماء، إذ يعتبر الإنسان المسؤول المباشر عنه بسبب تزايد النشاطه وتوسعه، وما أحرزه من تطّور صناعي وتكنولوجي وعلمي وثقافي وحضاري ولاسّيما في العصر الحديث، أثر على نمط العيش السائد وأدخل الكثير من التجديد على المدينة القديمة ومخططها العام وما ترتب عنه من مظاهر أثرت سلبيا على المعالم الأثرية. و التلوث على أنواع من بينها التلوث البصري الذى هو موضوع هذا المقال ولقد تناولنا هذه المشكلة من خلال محاولة البحث في معناها ومصادرها والأسباب المؤدية إليها مع اعطاء بعض النماذج من مدينة تلمسان الواقعة غرب الجزائر.

المقدمة:

يعتبر التطور العمراني و تحول نشاط الإنسان وبروز مستجدات حديثة في العصر من بين مظاهر التقدم الإنساني في العصر الحديث مثلما كان في كافة العصور التاريخية، إلاّ أنه أثر سلبيا على التراث المعماري بسبب ما أدخله من تغيير وتجديد على مخطط العام للمدينة. و لقد عانت المباني التاريخية من هذا التحول بسب ظهور مشكلة التلوث البصري وما ترتب عنها من مظاهر. فبالرغم من أثر التلوث البيئي وما شكله من أعباء على المباني التاريخية إلا أن أثر التلوث البصري كان مختلف ومتعدد الأشكال وأكثر خطورة. لا شك أن هذا التلّوث جاء بفعل تضافر عدّة عوامل، ساهمت بشكل كبير في تقليص عمر المبنى الأثري واختفائه وفي محو المقّومات الحضارية للأّمة، وبالتالي ساعد على اضمحلال الهوية الثقافية، ولذلك تمحورت الإشكالية الرئيسية للموضوع حول ظاهرة التلّوث البصري وكيفية تأثيرها على المعالم الأثرية. أّما الإشكاليات الثانوية فتمثلت في وجوب البحث في أسباب وعوامل ومظاهر التلّوث البصري، ليتسنى لنا معالجته وتوفير الحماية الدائمة للمعالم الأثرية، من خلال البحث عن الأساليب الناجعة لمكافحته.

وبناءا على هذه الإشكاليات المطروحة اعتمدناعلى المنهج التاريخي لدراسة المعطيات التاريخية للمنطقة والعّينات المدروسة، والمنهج الوصفي القائم على المعاينة الميدانية المتكررة للمعالم الأثرية، ونقل الأثر بالحالة التي هو عليها عن طريق الوصف الأدبي والتصوير الفوتوغرافي. كما اعتمدنا على المنهج الاستنباطي والتحليلي قصد استقراء نتائج العمل الميداني، وتشخيصها للوقوف على حجم الأضرار اللاّحقة بالنماذج المختارة للدراسة، ووضع حلول استعجاليه.

[1] جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان (الجزائر)

تكمن جدة الموضوع في قلّة الدراسات التي تناولت علاقة التلّوث البصري بالمعالم الأثرية، فقد يبدو الموضوع غامض ومبهم بالنسبة للكثير من المهتمين بعلم الآثار وما يتصل به. أّما أهميته فتمثلت في أنّ ظاهرة التلّوث حديثة النشأة، وهي من أكبر مشاكل العصر ومن أكثرها خطرا على التراث المعماري. إذ لابد من البحث في ماهية هذه المشكلة ميدانيا ورصد الأضرار والأخطار التي تواجه معالمنا الأثرية، من أجل إيجاد حلول سريعة لتوفير الحماية للتراث المادي وتحسيس المسئولين بأهميته وضرورة التكفل به.

وللوصول إلى هذا الهدف استعنا على نوعين من المصادر، وهما المصادر المادية وتمثلت في اختيار مجموعة من المعالم الأثرية الواقعة بمدينة تلمسان الواقعة غرب الجزائر ، أّما المصادر التوثيقية فتمثلت في بعض المراجع والمقالات التي لها صلة بموضوع التلّوث مثل كتاب المدن التاريخية ،خطط ترميمها و صيانتها للدكتورالسيد محمود البنا، و كتاب تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة للدكتورعبد الباقي إبراهيم و كتاب حماية وصيانة التراث الأثري للمؤلفين أحمد إبراهيم عطية و عبد الحميد الكفافي... وقد قسمنا البحث الى جزئين رئيسيين ، تناولنا في الجزءالأول مفهوم التلّوث البصري وأسبابه ومظاهره، أما الجزء الثاني فخصص لرصد مظاهر التلوث البصري ميدانيا وتحليل النتائج . وقد ذيلنا البحث بخاتمة تضمنت أهم التوصيات.

1. مفهوم التلّوث البصري:

هو كل ما يؤذي البصر وينفره من مناظر غير متجانسة وغير متناسقة وعناصر مشوهة للشكل الجمالي للبيئة العمرانية بجميع مستوياتها،[1] ويؤدي إلى فقدان الإحساس الروحي بالقيم الجمالية والفنية وعناصر الأصالة للتراث المعماري التقليدي،[2] حيث أنّ القيمة الجمالية للمبنى مرتبطة أساسا بالبيئة الطبيعية للمكان.[3] تنوع وتتعدد أشكال التلوث البصري من مدينة إلى أخرى تبعا لخصائصها المعمارية و نمط تخطيط نسيجها العمراني وأهم المستجدات الطارئة عليها .لذلك قبل أن نذكر أسباب ومظاهر التلوث البصري سنتطرق إلى خصائص المدينة الإسلامية بصفة عامة.

2. مقومات المدينة الإسلامية:

تشترك المدن الإسلامية سواء في المشرق أو في المغرب في نمط تخطيط نسجها العمرانية من ذلك تقسيم الطرق وضيق الشوارع وتعرجها وسمات المباني وكيفية توزيعها[4] فمن سمات المدينة العربية الإسلامية المسجد الكبير الذى يتوسط مركز المدينة[5] وهو القلب النابض من جسدها المؤثر والمسيطر على الأنظمة الاجتماعية و الاقتصادية وهو يمثل المركز الديني يليه مباشرة المركز الصناعي الاقتصادي وهو مكان تداول الأنشطة التجارية ويتألف في العادة من شوارع محيطة بالجامع تحمل اسم النشاط أو السلعة التى تباع فيها مثل درب الخياطين و الصباغين و الحطابين و الفاخرين والحاصرين و النحاسين

والوراقين والزجاجيين وغير ذلك.[6] كما يرتبط هذا المسجد بالساحات العامة التي تطورت فيما بعد مع تطور المكانة التخطيطية لهذه المساجد في المدن العربية القديمة،أما عن وظيفة الساحات فتجسدت في ممارسة الأنشطة الجماعية للجماهير سواء منها الدينية أو الاجتماعية أو التجارية أو السياسية.[7] أما المركز الاجتماعي فيتألف من المباني السكينة والمؤسسات العامة كالحمامات والقناطر والقنوات والشبكات المياه والطرق والشوارع.[8]

لقد جاء تصميم المنازل بشكل يتماشى مع الظروف الطبيعية ففي الجزائر مثلا امتازت المنازل بالأبواب الواسعة والغرف الفسيحة والأرضية الرخامية والردهة والساحة التي تحتوي على فوارة وكل هذا يتلاءم مع الطقس الحار[9] كما روعي في التصميم مقتضيات الدين الإسلامي الذي يحرم انكشاف المرأة على الغرباء فلهذا بنيت الأحواش وقلت النوافذ والشرفات،[10] أما الشوارع في المدن الإسلامية فجاءت ملتوية كثيرة التعرج تتشعب منها الدروب والأزقة الضيقة التي قلما تدخلها الشمس لكثرة التواءاتها و تقارب المباني،[11] لكن في العصر الراهن و ما أحرزه التطور العلمي و التكنولوجي و الغزو الثقافي الغربي للمدن الإسلامية تغير نسيج المدينة و تصميم المباني و كيفية تقسيم الفراغات ، وقد مس هذا التغيير المباني التاريخية و هذا ما سوف نتطرق اليه فيما يلي.

3. أسباب المشكلة:

توجد مجموعة من العوامل والأسباب ساهمت في ظهور مشكلة التلوث البصري ويمكن حصرها في ما يلي :

أ- *الأسباب التقنية :*

يعتبر الإنسان مصدرا لمختلف أنواع التدهور الذى يصيب المعالم الأثرية ؛ وذلك بفعل تحول نشاطه والتطور الصناعي والتحولات الطارئة في محيطه، فبالرغم من أن هذه الأعمال التخريبية كانت لا إيراديه إلا أن مفعولها كان سلبيا و سريعا.[12] فقد كان للتطور السريع للمنجزات العلمية والتكنولوجية التي توفر الاحتياجات المادية للإنسان بمعدلات فائقة أثر في إخلال موازنة الإنسان بين احتياجاته المعنوية والمادية. و قد ظهر هذا التأثير في مواد و عناصر الإنشاءات و نظرياتها المتطورة وهذه من أهم المشكلات التي يواجهها المعماري في محاولته ربط التراث الحضاري بالتقدم العلمي في بناء العمارة المعاصرة والتي تكون الحيز الفراغي للمدن.[13] فنجد مثلا التطور الاقتصادي قد أثر علي اتجاه العمارة نتيجة لاسترداد النماذج المعمارية الغربية والتأثر بها،[14] إلى جانب استخدام مواد بناء حديثة تختلف في تركيبتها عن مواد البناء التقليدية[15] في عمليات الترميم من ذلك استخدام الأسمنت البروتلاندي في ملء الفجوات والحقن الذي يتسبب في تصدع المبنى بسبب الرطوبة التي تعمل على إذابة ما به من أملاح قابلة للذوبان التي تأخذ طريقها نحو السطح وتتبلّور عند الجفاف و تتجمع في الشروخ،[16] وتتكرر نفس الظاهرة في حالة استخدام الجبس في الأبنية المشيدة في المناطق الرطبة.[17] كما ينشأ عن استخدام أسياخ

الحديد في عمليات التدعيم ولاسيما في وجود الرطوبة صدأ الحديد و من ثم زيادة حجمه حيث تتسبب هذه الأخير في حدوث انفعالات وضغط على الجدران ومن ثم تحدث عمليات التشقق وما تصاحبها من أضراًر خطيرة تؤثر على المبنى.[18]

يشكل استخدام مواد حديثة دون إخضاعها لدراسات معملية و تطبيقية خطراً كبيراً على المبنى الأثري حتى و إن أعطت هذه المواد نتائج ايجابية في البلد المنتج لها وذلك لاختلاف الظروف المناخية.[19] كما قد أو جب التطور التكنولوجي والثورة الصناعية في العصر الحديث إقامة مشاريع إنشائية كبرى كالسدود والسكك الحديدية وشق الطرق و مد أنابيب النفط وإنشاء المطارات والموانئ البحرية فتسبب هذا الأخير في الاعتداء والمساس بالآثار التي تشكل عائقا في طريقتها دون الاكتراث إلى أهميتها التاريخية وقيمتها الفنية والجمالية مثل مشروع السد العالي فى مصر وما نتج عنه من أضرار.[20]كما صاحب هذا التطور اختراعات جديدة في مجال النقل والمواصلات مثل السيارات والحافلات الشاحنات وغيرها من الوسائل الحديثة التي أثرت على التراث المعماري سلبا لما تحدثه من اهتزازات وتبعثه من أدخنة سامة إلى جانب أنها تشكل عبأ على شوارع وحارات المدينة القديمة التي لم تصمم بحسب احتياجات المرور الحديثة و أيضا لسوء استخدامها.[21] إن المدينة في العصر الراهن تتلقى في كل يوم جديدا من التقنية الحديثة و المبتكرات في الوسائل و المواد على الصعيد العمراني و الإنشائي ، فغير هذا التطور من ملامح المدن القديمة و أبعدها عن أصولها التاريخية ، و زادت الشقة بين مناطقها الحديثة و بين الأماكن القديمة المحصورة داخل الأسوار.[22]

ب-أسباب اجتماعية:

لقد أدى النمو الديمغرافي السريع لظهور أزمة السكن مما دفع إلى البحث عن مبان تفي بالغرض دون الاهتمام بالطابع المعماري الذي يميز المدينة الإسلامية مما أدي إلي فقدان المدينة الترابط و الانسجام بين عناصرها[23]كأن تقوم بعض السلطات العامة بإعادة تخطيط وتوسيع الطرق و تطوير المواقع لأغراض عمرانية من ذلك إصلاح الأرصفة، نصب شبكات نقل الطاقة الكهربائية أو توسيع و تحديد المباني القائمة أو تشييد مبان حديثة [24]وخير مثال على ذاك العمارات المتعددة الطوابق التى ظهرت فى المدينة لتلبية الإحتيياجات السكنية المتزايدة.[25]

ت-أسباب ثقافية:

لقد اقتبست الحضارة الغربية من الحضارة العربية قديمها و حديثها كثيرا من قيمها الروحية والعلمية وأدخلت بدورها على العالم العربي الكثير من القيم المادية والنظرية للحضارة الغربية، مما أفقدها اتزانها الروحي والمادي فقد الناس ارتباطهم بالكيان العمراني والاجتماعي الذي يعيشون فيه خاصة في الحضر و بقي الريف أو البادية في منأى عن طريق التأثير الغربي إلى أن ارتبطت القرية بالمدينة في الوقت الحاضر و أخذت منها الكثير من معالمها العمرانية.[26] ولقد أثار الكثير من المعماريين العرب والمسلمين مشكلة العمارة الغربية الطاغية بقيمها علي العمران العربي والإسلامي حيث تمكن خطورة

الأسلوب الغربي في كونها تضع المعماري المسلم في قالب الشكل وتبعده عن المضمون وتعاليم الإسلام.[27]

4 – العوامل المساعدة:

- ***الجهل و الإهمال:***

قد تدفع الرغبة في تجديد البناء القديم و الحصول على عمارة ذات فائدة اقتصادية و اجتماعية بعض الأفراد أو السلطات المسؤولة إلى هدم المباني التاريخية كليا أو جزئيا[28] كالقيام مثلاً بتوظيف هذه المباني الأثرية بصورة لاعقلانية من خلال إعطائها وظيفة في غير محلها كإتحادها مساكن للإقامة أو شغلها بحوانيت تجارية أو عملها ورشات حدادة و مسابك و مدابغ و ما إلى ذلك[29] كما أنه في بعض الدول يجعلون من هذه المباني مؤسسات إدارية و أماكن للسياحة مما يجعلها عرضة للتخريب المباشر والسريع لانعدام أجهزة التكيف واستخدام وسائل إضاءة تضر بالألوان وغير ذلك.[30] ومن صور انعدام الوعي وعدم الاكتراث بالأهمية التاريخية للمعلم الأثري إن يعمد بعض الزوار كتابة أسمائهم على الجدران باستخدام أقلام أو آلات حادة يصعب إزالتها و التخلص منها[31] أو عن طريق لمس الكتابات و النقوش المختلفة الموجودة على جدرانه رغبة في إشباع النفس بجماله و معرفة تاريخها مما أدى إلى الطمس الكلي أو الجزئي للألوان والنقوش، كما إن الاستنشاق والتنفس داخل الأماكن الأثرية يجعل الهواء الداخلي مشبعا بالرطوبة والأحماض مما يسبب إتلاف العديد من الرسومات الموجودة على الجدران، ففي هذه الحالة يتحلل غاز الكربون الناتج عن كثرة التنفس في وجود قطرات ماء التكاثف الغني بحض الكربونيك ويتحول على محلول قوي يفتك بالحجر الكلسي.[32] بالإضافة إلى انعدام أعمال الصيانة الدورية للمباني التي فقدت وظيفتها مع مر العصور كالحمامات القديمة و الجوامع و المدارس مما أدى إلى تلفا و تدهور حالتها الصحية.[33]

- ***الهجر:***

يؤدي هجر المباني التاريخية لظروف سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية (كالحروب، انتشار القحط و المجاعات، الجفاف و نحوها) إلى اختفائها و تهدمها بسبب العوامل الطبيعية أو العوامل البشرية كاستغلال أحجار هذه المباني في أعمال بناء جديدة[34]أوسرقة العناصر الزخرفية من ألواح الفسيفسائية و تيجان أعمدة و بيعها[35] أو بناء منازل جديدة فوق هذه الأبنية من خلال ترميم ما بقي من المبنى القديم و تهيأته على حسب متطلبات الحياة الجديدة[36] إلى جانب ما يقوم به الناس من رمي لقاذوراتهم ومخلفاتهم في هذه المباني المهجورة، وهنا تعمل الرياح و الأمطار ومختلف الكائنات الحية على تماسكها وجعلها طبقة صلبة من فوق البناء.[37]

5 مظاهر التلوث البصري:

يتخذ التلوث البصري عدة أشكال و مظاهر ويمكن حصرها في النقاط التالية :

– انتشار واجهات حديثة ذات خصائص معمارية مغايرة لا تمت لما يجاورها بأي صلة.

– ضيق دائرة رؤية المعالم الأثرية بسبب طغيان ارتفاع المباني الحديثة.

–التلاصق التام بين المباني الحديثة و المباني التاريخية دون ترك فاصل بينهما.

– إحساس بفاصل زمني كبير بين المباني الحديثة والقديمة.[38]

– طغيان التصميمات الهندسية والإنشائية المعمارية المستوردة من الخارج كالعمائر التجارية والصناعية الحديثة ذات الأنماط والاستخدامات المغايرة لطبيعية الحي والمنطقة الأثرية.

–تدهور حالة الطرق بسبب عدم تناسب الارتفاعات المباني مع عرض الطرق والشوارع.[39]

–استخدام خامات حديثة و مختلفة من عن الخامات الأصلية في أعمال الترميم تسبب في فقدان المعلم خصائصه الفنية و تشوه منظره.[40]

–سوء تقنين مياه الصرف شكل عامل مدمر ومشوه.

– سوء إيصال الأسلاك الكهربائية وأسلاك الهاتف والهوائيات التلفزيونية أحدث الكثير من التغيير داخل أو خارج المبنى.

– مجموعة الملصقات واللافتات التي تغطي أماكن كثيرة من حوائط المباني الأثرية مثلها في ذلك مثل المحالات التجارية التي تخفي أجزاء كبيرة من الحوائط والواجهات.

– إحداث توسعات على حساب المواقع الأثرية و المباني التاريخية على حساب الفراغات المتمثلة في حدائق من أجل وضع مواقف السيارات.[41]

– تتسبب وسائل النقل و المرور في اهتزازات تؤثر على تماسك طبقات البياض ولاسيما غير المرتبطة جيداً بالجدران أو شبه المنفصلة و الجدران المتصدعة من قبل العناصر الصغرى غير مرتبطة جيداً بهيكل الإنشاء مثل: جدران الدبش و الجدران المبنية من الطوب غير المترابط جيداً أو المنفصل، فهي الأكثر عرضة للتلف بسبب الاهتزاز.[42]

6 نماذج للتلوث البصري من مدينة تلمسان:

تقع ولاية تلمسان شمال غرب الجزائر يحدها شمالا البحر المتوسط وجنوبا ولاية النعامة وشرقا ولايتي عين تموشنت وسيدي بلعباس وغربا المغرب الأقصى. وهي منطقة تاريخية وسياحية، كانت تعرف ببوماريا في العهد الروماني واتخذها الزيانيون عاصمة لهم. تحتل تلمسان موقعا جغرافيا استراتيجيا، جعلها ولاسّيما في القرون الوسطى مركزا مهّما للحرب وللتجارة والسياحة، إذ أّنها تقع في ملتقى الطرق التجارية الرئيسية الرابطة بين الشرق والغرب من ناحية، وبين الشمال والجنوب من ناحية أخرى.[43]إنّ لمدينة تلمسان ماضيا تاريخيا وحضاريا هاما اكتسبته من خلال موقعها الجغرافي الإستراتيجي الهام، كما أّنها كانت عاصمة المغرب الأوسط لمدّة ثلاثة قرون حيث ازدهر خلالها الفكر وأخصبت الحضارة وتطّور العمران واستهوت العديد من رجالات الفكر والسياسة والثقافة، ممّا جعلها في الأخير مدينة الفن والثقافة والتاريخ.[44] تزخر مدينة تلمسان بمعالم أثرية وتاريخية عديدة تضرب بجذورها في أعماق العهود الغابرة

وتشهد على عراقة حضارة امتدت قرون وجعلت المنطقة مصدر إشعاع علمي وفكري. من بينها العينات التالية التي تقع وسط المدينة.

الخريطة رقم01: موقع مدينة تلمسان

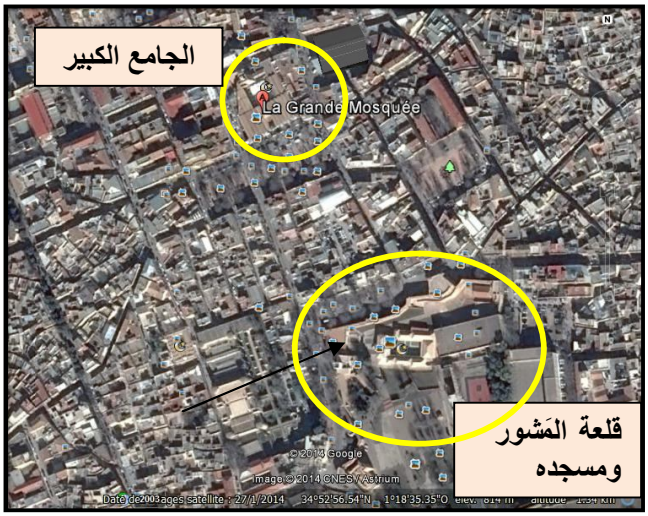

الخريطة رقم02:موقع الجامع الكبير و قلعة المشور

أ- قلعة المشور:

يحتل صرح المشور أعلى نقطة بمركز مدينة تلمسان، ويرتفع بقدر 806 م على مستوى سطح البحر، بناه يغمراسن الزياني بالمكان الذي اختاره يوسف بن تاشفين مقرا لقيادته[45] في أواسط القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي، وأقام به بعد أن حصّنه في غاية التحصين، ولايزال يحتفظ المشور بأسواره العالية وبابيه الداخلي المعروف بالباب الرئيسي وباب تويتة، كان يحوي داخله عدّة دور أنيقة وحدائق بديعة ونافورات للمياه ومسجدا كبيرا، كلّها اندثرت ولم يبق منها سوى المسجد[46] الذي بناه أبو حمو موسى الأوّل وأعاد تجديده الأتراك، كما حوّل إلى مستشفى عسكري ثّم إلى كنيسة كاثوليكية في فترة الاحتلال الفرنسي، وتزينه منارة مرتفعة تحمل زخارف فسيفسائية في قمّة الروعة تشبه تلك التي تزّين منارة مسجد أولاد الإمام.[47] تقع قلعة المشور في موقع جعلها أكثر عرضة للتلّوث البصري، وهذا ما يتضح فيما التالي: يقع المشور جنوب الجامع الكبير لتلمسان، يحدّه من الجهة الشمالية مجموعة من المحلات التجارية والمقاهي التي يفصلها عن السور طريق، أمّا من الجهة الشمالية الشرقية فيوجد موقف للسّيارات، في حين يحدّه من الناحية الشرقية مساكن شعبية، وترتكز عليه مباشرة بعض المباني وثانوية وملعب صغير، وفي الجهة الجنوبية الشرقية توجد ثكنة عسكرية، وفي الجهة الجنوبية تحدّه مباني مرتفعة ومحلات تجارية، وأخيرا الجهة الغربية التي يوجد بها دار الثقافة ومجموعة من المباني والمقاهي التي يفصلها كلّها عن المعلم شبكة من الطرقات. من خلال ما تقدّم ذكره نلاحظ أنّ المعلم يقع وسط حي تجاري ووسط المدينة. إلى جانب هذا يعاني المعلم من:

– القرب من الشوارع الرئيسية لمرور السّيارات التي تحدّه من الجهات الثلاثة (الشمالية و الغربية والجنوبية)، وانتشار اللاّفتات الإشهارية حول المعلم، ولاسّيما في المدخل، بالإضافة إلى مجموعة الأعمدة الكهربائية وأعمدة الأعلام التي تتقدّم المدخل بشكل مشّوه للمنظر.

– التصاق كشكين تجاريين ومراحيض عمومية بالسور الشمالي للمعلم، دون احترام المسافة القانونية الواجب تركها، وجود موقف للسّيارات داخل المعلم وأمام المدخل بحيث يتسّبب في اختناقات مرورية، ولاسّيما أنّ المشور يقع وسط شبكة طرقات رئيسية للمدينة كما ذكرنا آنفا.

– انتشار الباعة على الأرصفة حوالي المعلم التاريخي، وكثرة الأوساخ والقمامة بجانب الأسوار، التخريب العمدي من طرف الزوار، وقد تجلّت مظاهر التخريب في الكتابات على الجدران بواسطة أدوات حادّة وألوان كيميائية مضرّة لمادّة البناء، ورمي الفضلات داخل الأبراج وفي قنوات الصرف الصحي، بالإضافة إلى تعمّد بعض الأفراد كسر السّياج في الجهة الجنوبية من أجل الدخول إلى المعلم خاصّة في الأيام التي يكون فيها الدخول مقابل أجرة، وهذا يعيق مجهودات الدولة في دمج المعلم في المسارين السياحي والاقتصادي.

الصورة رقم01 : منظر عام لقلعة المشور من الجهة الغربية

الصورتين رقم02 و 03 توضحان انتشار اللافتات الإعلانية والأشجار ومواقف للسيّارات حول أسوار المشور

الصورة رقم 04

توضح طغيان ارتفاع المباني الحديثة حول المعلم

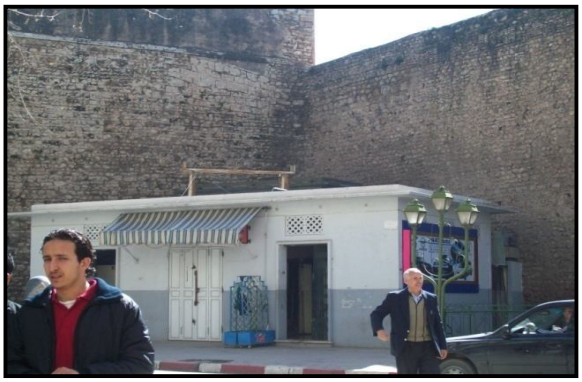

الصورة رقم 05

توضح تلاصق الكشك والمراحيض العمومية بالسور مباشرة

أمّا مسجد المشور الذي يوجد داخل صرح المشور الذي بني هو الآخر من طرف يغمراسن بن زيان فحاليا حوّل إلى متحف وهذه وظيفة لا تتّفق مع وظيفته الأصلية، ولاسّيما في ظلّ انعدام الصيانة الدورية للمعلم وعدم توفّر متخصصين في علم المتاحف الذين يسهرون على الحماية والحفاظ على التحف المعروضة، إذ أنّه لم يراع القواعد والأسس العلمية في عرض هذه التحف، التي جاء عرضها بشكل مشّوه للمنظر، ولم يراع أيضا توفير الظروف المناخية اللائقة لعرض التحف، فقد سجّلنا نسبة رطوبة تجاوزت 75% في فصل الربيع (شهر أفريل) هذا بالإضافة إلى: انعدام أعمال الصيانة الدورية والتنظيف خاصة في المسجد،و انتشار خيوط العناكب وفضلات الطّيور في المسجد بشكل يشّوه المنظر، بالاضافة إلي رمي القاذورات داخل المئذنة، وعدم الاهتمام بتنظيفها، علما أنّ هذه القاذورات مصدرها القائمين على حراسة المعلم بما أنّه يمنع دخول الأشخاص العاديين إلى المئذنة. أمّا عيوب عملية الترميم التي شملت المشور فتمثلت أساسا في استخدام مواد حديثة ومغايرة للمواد الأصلية بالإضافة إلى استعمال الإسمنت في ملء الفجوات وفي تبليط الأرضيات.

الصورة رقم أ05

تبين انتشار الفضلات داخل المئذنة مسجد المشور

الصورة رقم ب05

تبين انتشار الأعمدة والأشجار أمام واجهة مسجد المشور

سوء توظيف المسجد

الصورتان رقم 06 و07 توضحان تحويل مسجد المشور الى متحف.

ب-الجامع الكبير:

يقع الجامع الكبير وسط المدينة الجديدة " تاقرارت" *التي شيدها المرابطون، واليوم يأخذ موقعًا وسط مدينة تلمسان بالقرب من القيسارية،[48] وهو من المعالم الأثرية التي صعب تحديد الفترة التي بني فيها، حيث يرى ل. جولفان (L.Golvin)[49] وجورج مارسي (George Marçais) أنّ الخصائص المعمارية التي يتمّيز بها هذا الجامع توحي لنا أنّه بني في نفس الفترة التي بني فيها الجامع الكبير بالجزائر العاصمة سنة 1070 م من طرف يوسف بن تاشفين،[50] وأنّ علي بن يوسف بن تاشفين قام بتزيين المحراب والبلاطة الوسطى والقّبة التي أمام المحراب وذلك سنة 1136 م، وفي سنة 1236 م قام يغمراسن بتوسيع المسجد، حيث أضاف سبع أروقة جديدة في الصحن والمئذنة وقبة مركزية مزودة بثرية. أّما رشيد بورويبة فيعتقد أنّ يوسف بن تاشفين عند دخوله مدينة تلمسان وجد بها مسجد أغادير، فاكتفى به ولم يبن مسجدا آخر مثل ما فعل في الجزائر العاصمة وندرومة.[51]يحتوي المسجد على ستّة أساكيب موازية لجدار القبلة، يفصل بين الأساكيب الثلاثة الأولى بائكة من العقود المفصّصة، وهي الأخرى موازية لجدار القبلة، وتتكرر هذه البائكة أمام واجهة الصحن.[52]

الصورة رقم 08 تبين محراب جامع تلمسان

الصورة رقم 09 صحن الجامع

يعاني جامع المرابطين من مجموعة من الأخطار الناجمة عن التلوث البصري، حيث يقع الجامع وسط المدينة القديمة تحده مجموعة من الطرقات من الجهات الأربعة وهي كالتالي:

-الجهة الشمالية:طريق السلام

- الجهة الجنوبية: شارع جبار

- الجهة الغربية:شارع الاستقلال.

-الجهة الشرقية: درب سبع أقواس.

أما الآن و بسبب التوسع العمراني الحديث أصبح يقع ضمن محيط غريب عنه، فقد أدى وجود سوق القسيرية في الجهة الشرقية و مجموعة من المحلات التجارية في الشمال الشرقي و في الجهة الجنوبية من الجامع الكبير، و موقف السيارات في الجهتين الجنوبية الشرقية و الشمالية الشرقية بالإضافة إلى تلك المباني الحديثة التي تحيط بجوانبه إلى مجموعة من السلبيات يمكن حصرها في المظاهر التالية:

تغطية مجال رؤية المعلم من جهاته الأربعة بصورة واضحة، وتباين كبير بين نمط المباني القديمة و المباني الحديثة و نلمس ذلك في العلاقات بين الفراغات و الأشكال و الألوان و تركيبة المواد المستعملة في البناء و حتى من حيث الارتفاع، بالاضافة إلي خلق ضجة و زحمة كبيرة من حول المعلم بسبب انتشار المحلات التجارية من حوله، بل نجدها متلاصقة تماما مع المعلم دون ترك مسافة بينهما. وقد أدى وجود موقف السيارات أمام الجامع الكبير إلى تلوث الهواء الجّوي بسبب الغازات السامة التي تطلقها محركات السيارات، و الذي ينتج عنه غاز ثاني أكسيد الكبريت الذي إذا تفاعل مع الرطوبة سيتحول إلى حامض الكبريتيك المعروف بتأثيره السلبي على المباني الأثرية. وتشوه المنظر العام للمبنى بسبب الإيصال غير المنظم لأعمدة الإنارة العمومية والأسلاك الكهربائية و اللافتات الإعلانية. ومع استعمال الاسمنت في تلبيس الجدران الخارجية للجامع الذي سيؤدي إلى غلق المسامات الجدران و إحداث ضغوط، إلى جانب تسرب ما تحويه من أملاح إلى سطح الجدران و من ثّم ستتبلور معرضة المباني إلى أخطار بليغة. وقدتشوه المنظر بسبب استعمال خزانات للماء فوق سطح الجامع. مع الاهتمام بنظافة ببيت الصلاة الرئيسي و إهمال نظافة باقي الملحقات و لاسيما بيت صلاة النساء الواقع في الجهة الشمالية، واستخدام أجهزة حديثة دون الاكتراث لحجم خطورته و ما يشكله من أعباء، وكذا سوء إيصال الأجهزة الكهربائية داخل بيت الصلاة و لاسيما المئذنة مثل الأسلاك المصابيح و العدادات الكهربائية. وأخيراً تحويل المئذنة إلى مخزن و إهمال نظافتها.

الصورة رقم 10 تبرزواجهة الجامع

الصورتان رقم 11 و 12 توضحان تباين واجهات المباني الحديثة وواجهة المعلم الأثري

الصورتان رقم 13 و 14 توضحان انتشار الأعمدة الكهربائية واللافتات الإعلانية و المحلات تجارية حول الجامع الكبير

الصورتان رقم 15 و16 توضحان سوء توصيل الوسائل الحديثة داخل المئذنة

الصورتان رقم17 و18 تشوه المنظر العام للجامع بسبب استعمال وسائل حديثة

7- تشخيص نتائج المعاينة الميدانية:

يعدّ التطّور العمراني وتحّول نشاط الإنسان وبروز مستجدّات واحتياجات حديثة من بين مظاهر التطّور الإنساني في العصر الحديث، مثلما كان في كافّة العصور التاريخية، إلاّ أّنه أثّر سلبيا على التراث المعماري، بسبب ما أدخله من تغيير وتجديد على مخطط المدينة. ولقد عانت معالم مدينة تلمسان كغيرها من المدن التاريخية من هذا التحّول، بسب ظهور مشكلة التلّوث وما يترتّب عنها من مظاهر تم التعّرف عليها ميدانيا. وفيما يلي أهم مسببات هذه المشكلة:

-لقد عانت مدينة تلمسان التاريخية كغيرها من المدن الجزائرية القديمة من السياسة الإستعمارية حيث كانت تلمسان قبل وبعد الاحتلال الفرنسي بحوالي 15 سنة تحتفظ بمعظم مقّومات المدينة الإسلامية وبطابعها العمراني العتيق، إلى أن قامت السلطة الفرنسية المحتلّة بهدم ومحو الكثير من معالم الحضارة الإسلامية، من خلال تنفيذ المشاريع العمرانية التي تخدمها، ممّا أّدى إلى اندثار الكثير من الآثار الإسلامية.

- تسّبب النمّو السريع لسكان مدينة تلمسان، ولاسّيما في الفترة الأخيرة في زيادة استغلال الأراضي المجاورة للمعالم الأثرية وبالتالي حصر محيط المبنى.

-الاستغناء عن التصميمات المعمارية المحلية والتأثّر بالتصميمات الغربية أقدم على محو كلّ المقّومات والدلائل الحضارية والتاريخية المميّزة للمدينة القديمة، بما أحدثه من تجديد وتغيير للمخطّط العام، واستبدال الطابع المعماري المميّز لها بطابع عمراني جديد، وتسّبب في ظهور مدينتين في المدينة الواحدة.

- أثر التطّور الاقتصادي وزيادة الأنشطة التجارية سلبيا على المبنى الأثري، بسبب توسّع الأسواق وكثرة المحلاّت التجارية التي أصبحت تغطي معظم واجهاته ، وفي الكثير من الأحيان نجدها متلاصقة تماما مع المباني التاريخية.

-ا ستخدام وسائل حديثة مثل المكّيفات الهوائية والعدّادات الكهربائية والمصابيح الكهربائية بمختلف أنواعها والأعمدة والأسلاك الكهربائية، وإيصالها بطريقة مشّوهة للمنظر. بالإضافة إلى غزو وسائل المواصلات

بمختلف أنواعها المدينة ولاسّيما السّيارات والحافلات والشاحنات والقطارات ، وما تسّيه من أعباء وأخطار على المعالم الأثرية

–نقص الرقابة: إنّ للتشريع دور مهم في حماية المعلم الأثري ومحيطه من تعدّيات الأفراد، إذ أنّ المعاينة الميدانية أكّدت قصور تطبيق القوانين المتعلّقة بحماية التراث الأثري منذ القديم، وهذا ما لاحظناه ميدانيا من خلال التعدّي الصارخ للأفراد على المعالم الأثرية وسرقة مواد بنائها وبعض العناصر المعمارية، أو ترخيص عمليات البناء بجوار المعالم الأثرية، ومن ذلك تغيير واجهات المباني، وزيادة ارتفاع المباني المجاورة للمعالم الأثرية التي قلّما تكون مرخّصة، وأيضا ترخيص عمليات هدم المعالم الأثرية من أجل التوسيع، وخاصّة استغلال الأراضي المجاورة لأغراض فلاحية، فبالرغم من تلك الترسانة من القوانين التي تجّرم وتمنع الاعتداء على التراث الثقافي بجميع أشكاله، فإّنه ما زلنا نعاني عدّة مشاكل في مجال حماية الأثر، بسبب عدم تطبيق القوانين وتجسيدها ميدانيا من قبل السلطات المعنية، وغيابها ميدانيا وترك المجال مفتوح أمام مخّربي التراث.

الخاتمة:

يعتبر الإنسان المسئول الرئيسي في ظهور مشكلة التلوث البصري التي يعاني منها العالم اليوم، فقد جاءت كضريبة لتحدي الإنسان للطبيعة ومحاولته فرض السيطرة على البيئة المحيطة به، بالرغم أن هذا التحدي صاحبه إنجازات إيجابية تمثلت في بناء مجتمع متطور حضاريا وعلميا وتكنولوجيا ،إلا أنه أثر سلبا على التراث الثقافي بسب ما ألحقه به تدمير وتشويه وتغيير لمعالمه الأصلية ، فقد نجم مثلاعن استعمال مواد بناء حديثة في الترميم ، وسوء استخدام و ايصال الوسائل الحديثة إلى تشويه جمالية المعلم وغير ذلك من الأمثلة التي لا حصر لها. تعتبر مسألة الحفاظ على التراث الأثري والتكفل بالمشاكل التي يعاني منها جراء التلّوث البصري من المسائل المعقدة، لأّنه يصعب وضع حد لتدخل الإنسان في الطبيعة الذي بدأ يتدخل فيها منذ فترة بعيدة، إلاّ أّنه يجب العمل على وضع استراتجيه لحماية هذا التراث الأثري وضمان استمراريته في بيئة خالية من التلّوث، كما يجب على الجهات المكلّفة بحماية التراث الأثري أن تدرج ضمن اهتماماتها وضمن قوانين حماية التراث قوانين تنص على حماية التراث من أخطار التلّوث البصري باعتباره ظاهرة حديثة النشأة.

كما يجب البحث في سبل إعادة تقويم القوانين والتشريعات الخاصة بالتخطيط العمراني وتقسيم الأراضي والإسكان وتنظيم المباني،[53] لكي تتناسق وتتفق مع القوانين الخاصة بحماية التراث المعماري، مع ضرورة تطبيق القانون وتوفير دعم مالي من خلال صندوق ينشأ خصيصا لمساعدة كل من يعيد بناء منزله داخل المدينة القديمة، بالإضافة إلى توفير إنتاج العناصر التقليدية المكّونة للواجهات عن طريق مراكز إحياء الحرف التقليدية.[54]

– تشكيل لجنة متخصصة في تخطيط العمران والعمارة والفنون الجميلة تعرض عليها المشاريع التصميمية الخاصة بالساحات والميادين والطرق الرئيسية والأحياء ذات الطابع المميز والمناطق التاريخية والتراثية.[55]

– عدم إهمال المباني الأثرية غير المسجلة، حيث أن تجاور المباني الأثرية يعطي جمالا وقيما تبادلية.

– يجب أن تكون الحكومة ممثلة في إدارتها المحلية قدوة في هذا المجال عند إقامة منشآتها الحكومية داخل إطار المدينة.[56]

– ضمان تحديث البنية الأساسية، بحيث يأخذ بعين الاعتبار الطابع الخاص بالمدينة.

المراجع:

[1] – أسامة محمود إبراهيم، *التلّوث وأثره على المدينة المصرية المعاصرة*، (جامعة الأزهر، القاهرة، مصر، 2007) ص 12.

[2] – السيد محمود البنا، " التلّوث البيئي في المدن التاريخية"، (*مجلة كلية الآثار*8، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة، 1997) ص 808.

[3]–عبد الباقي إبراهيم، *المنظور الإسلامي للنظرية المعمارية*، (مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر، د.ت) ص 104.

[4]– السيد عبد العزيز سالم، بحوث *إسلامية في التاريخ و الحضارة و الآثار*، القسم الثاني (دار الغرب الإسلامي ،د.ت) ص:07

[5] –Amar Dhina, *Cites Musulman d'Orient et d'occident*, E.N.A.L, 1986 , 06

[6]– السيد عبد العزيز سالم ، بحوث *إسلامية في التاريخ و الحضارة و الآثار*، ص:12

[7] – عبد الباقي إبراهيم ، *تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة*، ص:35

[8]– السيد عبد العزيز سالم ، بحوث *إسلامية في التاريخ و الحضارة و الآثار*، ص:17

[9]–سعد الله أبو القاسم، *تاريخ الجزائر الثقافي* (ج2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981) ص:462

[10] - Amar Dhina, *Cites Musulman d'Orient et d'occident*, 05-06

[11]– السيد عبد العزيز سالم ، بحوث إسلامية في التاريخ و الحضارة و الآثار، ص:18

[12]- Thierry Verdel, *Géotechnique et Monument Historique*,(Institut national, polytechnique de Loraine, école de Mines Nancy) 1993, 53

[13]– عبد الباقي إبراهيم ، *تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة* ، ص:17

[14]–أسامة محمود ابراهيم، *التلوث و أثره على المدينة المصرية المعاصرة*، ص:129

[15] – السيد محمود البنا، المدن التاريخية ،خطط ترميمها و صيانتها،(ط1، مكتبة زهراء الشرق،2002) ص:37

[16]– منى فؤاد علي، ترميم الصور الجدارية، (مكتبة زهراء الشرق القاهرة، د.ت) ص:105

[17]–عاصم محمد رزق،علم الأثار بين النظرية و التطبيق، (مكتبة مدبولي، 1996) ص:184

[18] – منى فؤاد علي، ترميم الصور الجدارية، ص:105–106

[19]– منى فؤاد علي، ترميم الصور الجدارية، ص: 106

[20]– أحمد إبراهيم عطية و عبد الحميد الكفافي، *حماية وصيانة التراث الأثري*، (ط1، دار الفجر للنشر ة التوزيع القاهرة،2003) ص:124–125

[21]– السيد محمود البنا، *المدن التاريخية خطط ترميمها و صيانتها*، ص:34

2– عبد القادر الريحاوي، *المباني التاريخية حمايتها و طرق صيانتها*، (منشورات المديرية العامة للآثار و المتاحف، دمشق، 1972) ص:51

[23]– J. Deluz – Labruyère. « Tradition ou Modernité : Un faux Problème », *Maghreb Architecture et Urbanisme*, Direction du Mechta, édition Publisher cinq diamant 17013 Paris 1991), 53

[24]– المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، *صيانة التراث الحضاري*،(إدارة الثقافة، تونس،1990) ص:339

[25] – السيد محمود البنا، المدن التاريخية خطط ترميمها و صيانتها، ص:43

[26]–عبد الباقي إبراهيم ، *تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة*، (جامعة حلب ،1982) ص:25

[27]– عبد الباقي إبراهيم، *المنظور الإسلامي للنظرية المعمارية*، ص:104

[28]– أحمد إبراهيم عطية و عبد الحميد الكفافي، *حماية وصيانة التراث الأثري*، ص:124

[29]–السيد محمود البنا، *المدن التاريخية خطط صيانتها و ترميمها*، ص:99–100

[30] –Thierry verdel, *Géotechnique et Monument Historique*, 53

[31]– منى فؤاد علي، ترميم الصور الجدارية ، ص :108

[32]– Thierry verdel, *Géotechnique et Monument Historique*, 51- 52

[33]– السيد محمود البنا، *المدن التاريخية خطط صيانتها وترميمها*، ص:100.

[34]– فوزي عبد الرحمن الفخراني، *الرائد في فن التنقيب عن الآثار* (ط2، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1993)، ص: 32،33

[35]– أحمد إبراهيم عطية و عبد الحميد الكفافي، *حماية وصيانة التراث الأثري*، ص: 124

[36] – فوزي عبد الرحمن الفخراني، *الرائد في فن التنقيب عن الآثار*، ص:33.

[37]– فوزي عبد الرحمن الفخراني، *الرائد في فن التنقيب عن الآثار*، ص: 107

[38]– السيد محمود البنا، *التلوث البيئي في المدن التاريخية*، ص:810–811 .

[39]–محمد أحمد أحمد عوض، *ترميم المنشآت الأثرية*، (ط1،دار نهضة الشرق، القاهرة،2008) ص:149

[40]–أسامة محمود إبراهيم، *التلوث و أثره على المدينة المصرية المعاصرة*، ص:132

[41]– السيد محمود البنا، *المدن التاريخية خطط صيانتها وترميمها*، ص:33،51

[42]–جورجيوتوراكا، *تكنولوجيا المواد و صيانة المباني الأثرية*، (ترجمة:أحمد ابراهيم عطية، دار الفجر للنشر و التوزيع ، القاهرة،2003) ص:129

[43]– محمد بن رمضان شاوش، *باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان*، (ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت)، ص 29.

[44] – يحي بوعزيز، *الموجز في تاريخ الجزائر*، (ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت)، ص 210.

[45]– سيدي محمد نقادي، *التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالته الاجتماعية* (رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2005) ص27.

[46]– صبرينة دحماني، *دمج المباني الأثرية المرّممة في الحياة اليومية* (مذكرة ماجستير، قسم علم الآثار، جامعة تلمسان، 2006–2007) ص 60.

* أثناء حصار يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية لتلمسان القديمة أي أقادير بنى مدينة جديدة غرب تلمسان، سمها تقرارت و معناها المحلة في لغة القوم ، و إتخدها مركزا رسميا للحكومة المرابطية.

[47]- George Marcais, *les Villes d'Art Célèbres Tlemcen*, (Edition du tell Blida, Algérie, 2003), 82-83.

[48]– محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور (المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984) ص 44.

[49]– Rachid Bouruiba , l'Art religieux Musulman en Algérie, (2éme Edition, S.N.E.D, Alger, 1983), 72.

[50]– George Marçais , les Villes d'Art Célèbres Tlemcen , 19-20.

[51]– Rachid Bouruiba, *l'Art religieux Musulman en Algérie*, 71, 72

[52]– محمد الطيب عقاب، *لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر* (ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2002) ص 55 .

[53]– أسامة محمود إبراهيم، ، *التلوث و أثره على المدينة المصرية المعاصرة*، ص 134.

[54]– السيد محمود البنا، " *التلوث البيئي في المدن التاريخية*"، ص 819.

[55]– أسامة محمود إبراهيم، ، *التلوث و أثره على المدينة المصرية المعاصرة*، ص 134.

[56]– السيد محمود البنا، " *التلوث البيئي في المدن التاريخية*"، ص 819.